

أم الدرداء (الصغرى) في الأموي بدمشق

"خطبتني إلى أبي في الدنيا فزوجك لي... وأنا أخطبك إلى نفسك في الآخرة..."

بقلم: الباحثة نبيلة القوصي

إخوتي الكرام قراء زاوية (معالم وأعيان): نحكي لكم اليوم سيرة امرأة آمنت بالله ورسوله ثم ترجمت هذا الإيمان الصادق حباً وانتماءً لني الرحمة بالقول النافع والعمل الصالح ، فكانت مشعلاً منيراً وعنواناً رائعاً لهذا الحب في زمن مضى على أرض دمشق الحبيبة...

إخوتي:

إذا تصفحنا التاريخ الإسلامي ببصيرة المحبين العاشقين لله ورسوله، نبصر وبقوة كيف شاركت النساء الرجال مجالات شتى في تأسيس مجتمعات إسلامية تميزت بحب العلم والتعلم للتقرب من سيد الكون الذي بدأت رسالته المحمدية بـ (اقرأ)..

في مقدمتهن كانت أمهات المؤمنين ابتداءً بالسيدة خديجة بنت خويلد رضوان الله عليها، ومن بعدها نساء عالمات عابدات تقيات، ينافسن الرجال بالعلم النافع والعمل الصالح، فجدو على مر العصور كيف كنّ خير نماذج تستحق منا الوقوف على سيرهنّ لتعلم ونتفقّه، فهلا قبلتم دعوتنا؟

قال عز وجل (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)..

وقال النبي الكريم: (.. خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)..

فالتقوى والفقه، أي الفهم على الله ونبيه، لا يمكن الوصول إليهما إلا بالاجتهاد على النفس في خلوة مستمرة مع الله عز وجل بذل العبودية له ، و بجناحي الرجاء والخوف والأمل بالقبول والرضا....

ومن يقرأ في التاريخ الإسلامي يجد أسماء كثيرة لأناس اجتهدوا وجاهدوا على أنفسهم من دنيا فانية فانية، لتكون سيرهم نبراساً يتألاً بالمنهج المحمدي العظيم الذي فقوه واتبعوه بتقوى رائعة تجذبنا للقراءة المتمعة....

لم يكونوا رجالاً فقط، وإنما نساء أيضاً، أخذن ينافسن الرجال في بلوغ حقيقة الإيمان، فكّن خير من اقتدين بأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، ومن حقهنّ علينا أن نقرأ سيرهنّ بتمعّن وتأمل...

فها هو الرحالة المعروف بابن بطوطة، عندما دخل دمشق في القرن الثامن للهجرة، يقول:
 قصدت الأموي للزيارة ففوجئت بالمحدثات لحديث رسول الله، قد ملأن المسجد..
 وقال أيضاً: قرأت على عائشة بنت محمد بن المسلم الحرائية، التي كان لها مجلس علم، وكانت
 تكتسب بالخياطة...

ثم ها هي (أم الدرداء الصغرى) تنادي علينا لتقص لنا كيف كانت وكانوا محبين عاشقين
 للمصطفى العدنان... فمن منا سوف يصغي ويستمع إليها، عسى الله أن يلهب أرواحنا للعمل
 الذي يرضيه...؟

بداية لا بد أن نذكر من هو أبو الدرداء؟ إنه صحابي جليل، سيد القراء، وصفه النبي الكريم
 بـ(حكيم أمتي)، وهو أول من سنّ سنة الحلقات القرآنية في دمشق بعدما هاجر إليها، كان الناس
 يلتفون حوله ويستمعون لطيب قراءته بعد صلاة الفجر.. فكان بسيرته الوضأة وحكمته علماً
 ومعلماً للناس من حوله..

مختلف في اسمه: عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري الحزرجي، أو عويمر بن عامر..



روى أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، تولى منصب القاضي بدمشق في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان له زوجتان الأولى اسمها: خيرة بنت أبي حدرد الأسلمي، توفيت قبل زوجها بعامين، وكانت من رواة الحديث، ولقبت بـ (أم الدرداء الكبرى)..
 و(أم الدرداء الصغرى) هي الزوجة الثانية له، واسمها: هجيمة بنت حي الأوصابية الحميرية الدمشقية، التي وُصفت بالعالمة الفقيهة والتي تعلمت من زوجها الكثير، وهي من سنقف اليوم عند سيرتها كي نشحن قلوباً نامت فيها العزيمة وغفت وتكاسلت عن طيب القول وصالح العمل...
 فلنقرأ فاتحة الكتاب لأرواحهم الطاهرة، داعين الله أن يرزقنا حسن الإتياع، ولنمض معاً يا إخوتي...

قرأت وحفظت أم الدرداء عن زوجها القرآن الكريم، وحدثت عنه الأحاديث بكل الحب والامتنان لمعلمها وزوجها، فكانت من حسن أدبها تقول: (حدثني سيدي أبو الدرداء، وأوصاني حبيبي أبو الدرداء..).

روت عنه علماً جماً، وروت عن السيدة عائشة وأبي هريرة وسلمان الفارسي وغيرهم رضوان الله عليهم..

وصفت المصادر الحب الراقي الذي جمع بين أبي الدرداء وأم الدرداء الصغرى بعبارات ومعانٍ تترجم ذلك الحب المقرون بالاحترام والامتنان.. وقد كانا يقومان الليل معاً تعبداً لله وتعظيماً له..
 كساها الله عز وجل روحانية وعذوبة في التعبير، فقصدتها الناس ليتعلموا منها كيف تكون رقة القلب والخشوع في الجوارح عند ذكر الله وقراءة القرآن.
من أدعيتها: اللهم إن أبا الدرداء خطبني فتزوجني في الدنيا، اللهم فأنا أخطبه إليك فأسألك أن تزوجينه في الجنة، فقال لها أبو الدرداء: فإن أردت ذلك فكن أنت الأولى فلا تتزوجي، وعندما مات أبو الدرداء خطبها معاوية، فقالت: لا والله لا أتزوج زوجاً في الدنيا حتى أتزوج أبا الدرداء في الجنة إن شاء الله .

كانت محدثة فقيهة زاهدة حكيمة عابدة، وواحدة من عابدات الشام التي كان لها السبق في الخير والصلاح والإصلاح، وكانت تقول: طلبتُ العبادة في كل شيء، فما أصبت لنفسي شيئاً أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم.. تعلموا الحكمة صغاراً، تعملوا بها كباراً، إن لكل زارع حاصد ما زرع من خير أو شر.

من أقوالها: إن أحدهم يقول اللهم ارزقني، وقد علم أن الله لا يمطر عليه ذهباً ولا درهماً، وإنما يرزق بعضهم من بعض، فمن أُعطي شيئاً فليقل، فإن كان غنياً فليضعه في ذي الحاجة، وإن كان فقيراً فليستعن به .

كان الرجال يقرؤون عليها في الحائط الشمالي بجامع دمشق، وكان عبد الملك بن مروان يجلس في حلقتها يستمع لدرسها، وقد شوهده مرة يسألها فتجيبه، وعندما نودي للصلاة دخلت معها متكئة على يده يوصلها مكانها ثم يتجه إلى المحراب للصلاة...

سألها رجل: إني لأجد في قلبي داء لا أجد له دواء، وأجد قسوة شديدة وأملاً بعيداً...

فقال أم الدرداء: اطلع في القبور، واشهد الموتى...

وقال ابن حبان في (الثقات): كانت تقيم ستة أشهر بيت المقدس وستة أشهر بدمشق، وماتت سنة إحدى وثمانين للهجرة .

إخوتي، بل أخواتي خاصة..

ماذا أعددتنا لصفحتنا الأخيرة من حياتنا، ونحن الذين سنكون غداً من الأموات..؟

لقد كانت نساء الماضي أفضل منا في جعل مجالسهن روضةً من رياض الجنة، لسانهن يتنزه عن الغيبة والنميمة، وفاحش القول... وقلوبهن عامرة بالحب والدعاء للغير من الخلق: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))، يتفكهن برواية الحديث الشريف، أو بتفسير القرآن العظيم، أو بنظم أبيات من الشعر المفيد ..

فكانت لهن إسهامات فريدة في التاريخ الإسلامي، ودُكرن في كتب العلماء الكبار كالعسقلاني والذهبي وابن كثير وغيرهم....

فلتنظر نساء اليوم كيف هي مجالسهن، وماذا أعددن للمستقبل القادم ... ؟

ويذكرنا الإمام الشافعي (رحمه الله) بخطورة اللسان قائلاً :

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغتك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الأقران

المصادر:

سير أعلام النبلاء / للذهبي.